الفصل الثالث

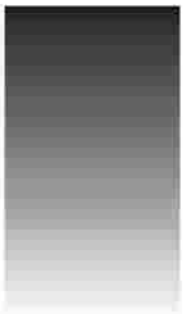

مصطلح

الكون

تمهيد

يعتبر مصطلح "الكون" عند الأستاذ بديع الزمان النورسي أحد القرائين الثلاثة، التي خاطب بها الله الناس أجمعين، وذلك بعد قرآن الوحي، وشخص الرسول ﷺ الذي كان خُلُقه القرآن. فالكون إذن خطاب إلهي للعالمين؛ ومن هنا كان كل شيء فيه آية مبصرة، ونورا يعكس جمال الأسماء الحسنى. إن وجود المخلوقات كلها من سماوات وأرضين وما بينهما من الأجرام السيارات، وأفلاك المدارات، وما يحمله كل جرم من ذوات الحياة والشعور، مما نعلم أو لا نعلم؛ كل ذلك أحرف في كتاب الكون، الذي خاطب به رب العالمين الخليقة كلها. وهذا معنى عظيم، صرح به كتاب الوحي في غير ما آية وسورة. قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤). وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). ومثل ذلك كثير.

فإذا كان ذلك كذلك؛ أي إذا كان "الكون" بمعناه الوجودي خطابا؛ فإن الخطاب لا يخلو من قصد، بل لا يسمى "الخطاب" -من حيث هو مفهوم لساني- كذلك إلا إذا كان مبنيا على قصد بلاغي بالمعنى الإرسالي للكلمة. ومن هنا كان لمصطلح "الكون" حضوره القوي في المشروع

التجديدي للنورسي؛ فلذا صار هذا الرجل العبقري أحد القراء الكبار لكتاب الكون، إذ جاء منه بمعان وإشارات قلما تجدها عند غيره. بل إنني زعيم لك أن من لم يحط بمفهوم "الكون" لدى بديع الزمان النورسي لن يستطيع الدخول إلى منظومته الفكرية، ولا السياحة في أرجائها وفضاءاتها على التمام والكمال! ومن هنا اختيارنا لهذا المصطلح، في سياق دراسة معجم بديع الزمان النورسي رحمه الله.

أولا: التعريف:

أ- في اللغة:

ترجع مادة "كون" في اللغة إلى معنى الحدوث والوجود. والكون في اللغة له دلالتان: مصدرية واسمية. وهذه من تلك، أي إن أصل الدلالة الاسمية إنما هو من المصدرية. فالمصدرية: الكون مصدر "كان" التامة -دون الناقصة- أي التي بمعنى "وُجِدَ" تقول: "كان الشيءُ": أي وُجِد وحَدَثَ، فصار موجودا وحدثا. ومنه انتقلت الدلالة إلى جميع مشتقات "كون" ككان الناقصة التي هي من النواسخ. فمرجع ذلك كله إلى الحدثان والوجود.

وأما الدلالة الثانية الاسمية؛ فهي الكون: بمعنى الوجود الحادث من سائر المخلوقات والكائنات. وقد ذكر ابن منظور ذلك كله مفصلا في اللسان نلخص منه ما يلي: "الكَوْنُ: الحَدَثُ، وقد كان كَوْناً وكَيْنُونة (...) والكَيْنونة في مصدر كانَ يكونُ أَحسنُ. (...) والكائنة: الحادثة. وحكى سيبويه: أَنا أَعْرِفُكَ مُذْ كنت أَي مذ خُلِقْتَ، والمعنيان متقاربان. [قال] ابن الأَعرابي: التَّكَوُّنُ التَّحَرُّك، تقول العرب لمن تَشْنَؤُه: لا كانَ ولا تَكَوَّنَ؛ لا كان: لا خُلِقَ، ولا تَكَوَّن: لا تَحَرَّك أَي مات. والكائنة: الأَمر الحادث. وكَوَّنَه فتَكَوَّن: أَحدَثَه فحدث. وفي الحديث: "مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ

فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَكَوَّنُنِي"[1](...). وكَوَّنَ الشيءَ: أَحدثه. والله مُكَوِّنُ الأَشياء يخرجها من العدم إلى الوجود. و"المكان": الموضع، والجمع أَمْكِنة وأَماكِنُ، توهَّموا الميم أَصلاً حتى قالوا تَمَكَّن في المكان (...) وكان ويكون: من الأَفعال التي ترفع الأَسماء وتنصب الأَخبار، كقولك كان زيد قائماً ويكون عمرو ذاهباً، والمصدر كَوْناً وكياناً (...) وكان تأْتي باسم وخبر، وتأْتي باسم واحد وهو خبرها كقولك كان الأَمْرُ وكانت القصة أي وقع الأَمر ووقعت القصة، وهذه تسمى التامة المكتفية (...) وأَما قوله ﷻ: "وكان الله عَفُوّاً غَفُوراً"، وما أَشبهه فإِن أَبا إِسحاق الزجاج قال: قد اختلف الناس في كان فقال الحسن البصري: كان الله عَفُوّاً غَفُوراً لعباده. وعن عباده قبل أَن يخلقهم، وقال النحويون البصريون: كأَنَّ القوم شاهَدُوا من الله رحمة فأُعْلِمُوا أَن ذلك ليس بحادث وأَن الله لم يزل كذلك، وقال قوم من النحويين: كانَ وفَعَل من الله تعالى بمنزلة ما في الحال، فالمعنى، والله أَعلم: والله عَفُوٌّ غَفُور؛ قال أَبو إِسحاق: الذي قاله الحسن وغيره أَدْخَلُ في العربية وأَشْبَهُ بكلام العرب (...) وروي عن ابن الأَعرابي في قوله ﷻ: ﴿كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ أَي أَنتم خير أُمة، قال: ويقال معناه كنتم خير أُمة في علم الله. وفي الحديث: "أَعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْنِ".[2] ويروى "الكور" بالراء وهو صحيح أيضا"، قال ابن الأَثير: الكَوْنُ مصدر كان التامَّة".[3]

وأما في اصطلاح بديع الزمان النورسي؛ فهو كما يلي:

ب- الكون: هو شجرة الخلق الكلية، وكتاب الله المنظور، المنعكس عن

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) لسان العرب، مادة: "ك و ن".

الأسماء الحسنى، المنجذب إلى خالقه بحركة المحبة، في سير يفيض بالحياة.

فهذا تعريف شامل للمفهوم الكلي الذي وضعه بديع الزمان "للكون"؛ اعتمادا على تدبره لآي القرآن العظيم. وإنما نحن ركبناه استقراء لنصوص كليات رسائل النور، العارضة لهذا المعنى كليا، أو جزئيا. ونسوق الآن ذلك مفصلا، من خلال دراسة عناصر التعريف، فصولا وخواص وأعراضا. وهو كما يلي:

بـ١- الكون شجرة الخلق الكلية:

فأما كونه "شجرة الخلق الكلية"؛ فلأن الوجود كتلة واحدة، مترابطة العناصر، بعضها يفضي إلى بعض، تماما كما تفضي بعض أطراف الشجرة إلى بعض. فالتسلسل الحاصل في بناء الكون هو تسلسل سببي، غائي، بحيث ينبني الفرع فيه على الأصل؛ وتمتد عناصره بعد ذلك امتداد الأغصان في الفضاء، لغاية معلومة. وهذا التصور لدى بديع الزمان قائم أساسا على اعتبار أن الإنسان هو ثمرة الكون الجامعة، كما بيناه في محله.[1] قال رحمه الله: "إن الخالق الحكيم العليم سبحانه، قد خلق هذا الكون بمثابة شجرة، وجعل أرباب الشعور ثمارها الكاملة، وكرّم الإنسان باعتباره أجمع ثمرة لأرباب المشاعر، وجعل الشكر والعبادة أفضل ما تثمره حياة الإنسان، بل هما -الشكر والعبادة- نتيجة خلقه وغاية فطرته وثمرة حياته".[2]

ولك أن تتمثل بالصورة التي رسمها الأستاذ النورسي لهذه الشجرة كما يلي: "فالكائنات شجرة، والعناصر أغصانها، والنباتات أوراقها، والحيوانات أزاهيرها، والأناسي ثمراتها".[3] وهذا التصور أو التصوير

(١) انظر مصطلح "الإنسان" من هذا الكتاب.

(٢) اللمعات، ص ٢٨٨.

(٣) المثنوي العربي النوري، ص ٣٣٠.

تواتر عنده؛ حتى كان لا يرى أي شيء إلا من خلاله. فاقرأ قوله مثلا: "أيها الناس! انظروا إلى الكرة الأرضية الطائرة في انجذاب ونشوة، والسائرة في جو الفضاء، وتأملوا في الشمس المستقرة مع حركتها، والأجرام العلوية المرتبط بعضها ببعض بالجاذبة العامة، وتدبّروا في العناصر الكثيرة المرتبط بعضها ببعض، بأواصر كيمياوية في شجرة الخلقة، المنتشرة فروعها في الفضاء غير المحدود.. لتتصوروا عظمة الصانع!! أو انظروا بمجهر عقولكم إلى قطرة ماء، التي تستوعب عالماً من الحيوانات، بأن الله على كل شئ قدير!".[1]

إن التصور الشجري للكون جعل بديع الزمان النورسي يتمكن من إثبات أصلين عظيمين من أصول الدين، هما: التوحيد، والبعث.

فأما التوحيد فهو راجع ههنا إلى كون الخلقة الكونية "كلية" واحدة، من حيث بذورها التي تنتهي -مهما تعددت الثمار- إلى زارع واحد هو الخالق للكل ﷻ. يقول النورسي: "ما أن تنفذ الحياةُ في شيء [حتى] تصيّره عالَماً بحدّ ذاته؛ إذ تمنحه من الجامعية ما يجعله كلاً إن كان جزءاً، وما يجعله كلياً إن كان جزئياً؛ فالحياة لها من الجامعية بحيث تعرض في نفسها أغلب الأسماء الحسنى المتجلية على الكائنات كلها، وكأنها مرآة جامعة تعكس تجليات الأحدية. فحالما تدخل الحياة في جسم تعمل على تحويله إلى عالم مصغّر، لكأنها تحيله بمثابة بذرة حاملة لفهرس شجرة الكائنات، وكما لا يمكن أن تكون البذرة إلاّ أثر قدرة خالق شجرتها؛ كذلك الذي خلق أصغر كائن حي، لابد أنه هو خالق الكون كله".[2]

---

(١) صيقل الإسلام/محاكمات، ص ٣٠.

(٢) اللمعات، ص ٥٦٩.

ومن هنا كانت "أدق الأحوال الجزئية والثمرات التي هي في أقصى نهايات شجرة الخلق تشهد وتشير إلى التوحيد والوحدانية".[1]

إن المفهوم الشجري للكون لدى بديع الزمان قائم أساسا على استقراء أحوال الحياة في هذا الوجود، فهذه الأجيال البشرية تتجدد وتتساقط كما تتجدد وتتساقط أوراق الأشجار، وهذه السماوات والأرضون وسائر النجوم والكواكب السيارة، وكل دوائر الأفلاك، كل ذلك عبارة عن أنظمة من الدوائر المتداخلة بعضها يستند إلى حركة البعض في تناسق عجيب؛ بدءاً بأصغر جرم إلى أضخم كوكب. فإذا بالكل إذن يتحرك في الحقيقة عبر مدار واحد، مهما بدا أن المدارات متعددة فهي متداخلة بعضها يتحرك بحركة البعض. وبذرة الحياة فيه ذات خلاصة مصغرة جدا لكنها تحمل فهرست الكون كله. ذلك "أن أول كل شجرة عُليبة صغيرة وبرنامج.. وآخرها نموذج ولائحة تعريف.. وظاهرها حلّة مزركشة ولباس مزيّن.. وباطنها مصنع ومعمل.. فهذه الجهات الأربع تلاحظ إحداها الأخرى، فتنشأ من هذه الأربعة علامة عظيمة جداً، بل اسم أعظم بحيث لا يمكن قطعاً أن يقوم بتلك الأعمال غير الواحد الأحد الذي بيده زمام الكون كله".[2]

وأما البعث: فالتصور الشجري هو من أوضح الإحالات على عقيدة البعث والنشور، والحشر إلى الله الواحد الأحد. ذلك لأن عالم النبات عموما يقوم على مبدأ "البعث". فالشجرة التي جفت تربتها، ويبس عودها، أعواما؛ حتى تيقن موتها؛ ما تفتأ بعد عام من الغيث أن تنبعث من تربتها حية جديدة، كأنها غرست غضة طرية؛ وذلك لما للبذرة من كمون السنين

(١) الشعاعات، ص ٢٦.

(٢) الشعاعات، ص ٤١.

الطويلة، والاستعداد للنشور في أي لحظة توفرت فيها شروط الحياة. ولذلك وجدنا القرآن الكريم كثيرا ما يمثل لمبدأ البعث والنشور بعالم الأشجار والنبات. وذلك نحو قول الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(ق:٩-١١) وما كتب بديع الزمان رسالة الحشر إلا من بعد ما قرأ قوله ﷻ من سورة الروم: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٤٨-٥٠). أورد مصطفى صونغور تلميذ الأستاذ النورسي رحمه الله هذه الخاطرة:

"كنت أنا وزبير مع الأستاذ في غرفة في بستان على حافة بحيرة بارلا -أغردير- وذلك في ربيع سنة ١٩٥٤ فقال الأستاذ: "قبل ثلاثين سنة تقريبا وفي هذا الموسم حيث تتفتح أزاهير أشجار اللوز، كنت أتجول هنا -مشيرا إلى الأشجار والبساتين- وإذا بالآية الكريمة: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ترد إلى خاطري وفتح الله علي هذه الآية في ذلك اليوم فكنت أسير وأتجول وأتلوها بصوت عال حتى قرأتها أربعين مرة، وفي المساء ألفت "رسالة الحشر" الكلمة العاشرة، مع الحافظ توفيق الشامي، أي أمليتُ عليه الرسالة وكتبها".[1]

(١) سيرة ذاتية، مقدمة الكتاب.

فمن هنا -من القرآن الكريم- كان للنورسي ما كان من تصور شجري للكون. إذ لم يكن هذا الوجود شجرة إلا لأنه قابل للبعث مرة أخرى بعد نهايته. قال رحمه الله: "نعم، فما دامت "الحياة" هي حكمة خلق الكائنات، وأهم نتائجها، وجوهرها، فلا تنحصر تلك الحقيقة السامية في هذه الحياة الدنيا الفانية القصيرة الناقصة المؤلمة، بل إن (...) ما يُفهم من غاية شجرتها ونتيجتها، وثمرتها الجديرة بعظمة تلك الشجرة، ما هي إلاّ الحياة الأبدية والحياة الآخرة والحياة الحية بحجرها وترابها وشجرها في دار السعادة الخالدة. وإلاّ يلزم أن تظل شجرة الحياة المجهَّزة بهذه الأجهزة الغزيرة المتنوعة في ذوي الشعور -ولا سيما الإنسان- دون ثمر ولا فائدة ولا حقيقة".[1]

وقال مبينا أمثلة ذلك في سياق تفسير آيات من سورة "يس": "تنكرون إذن النشأة الأخرى التي هي مثل هذا بل أهون منه؟.. ثم يشير بـ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً﴾(يس:٨٠) إلى تلك الآلاء وذلك الإحسان والإنعام الذي أنعمه الحق سبحانه على الإنسان، فالذي ينعم عليكم مثل هذه النعم، لن يترككم سدى ولا عبثاً، لتدخلوا القبر وتناموا دون قيام.. ثم انه يقول رمزاً: إنكم ترون أحياء واخضرار الأشجار الميتة، فكيف تستبعدون اكتساب العظام الشبيهة بالحطب للحياة ولا تقيسون عليها؟.. ثم هل يمكن أن يعجز مَن خلق السماوات والأرض عن إحياء الإنسان وإماتته وهو ثمرة السماوات والأرض، وهل يمكن لمن يدير أمر الشجرة ويرعاها أن يهمل ثمرتها ويتركها للآخرين؟! فهل تظنون أن يُترك للعبث "شجرة الخلقة" التي عجنت جميع أجزائها بالحكمة، ويهمل ثمرتها ونتيجتها؟.. وهكذا

(١) الكلمات، ص ١١٥.

فإن الذي سيحييكم في الحشر هو مَن بيده مقاليد السماوات والأرض، وتخضع له الكائنات خضوع الجنود المطيعين لأمره فيسخرهم بأمر "كن فيكون" تسخيراً كاملاً.. ومَن عنده خلق الربيع يسير وهيّن كخلق زهرة واحدة، وإيجاد جميع الحيوانات سهل على قدرته كإيجاد ذبابة واحدة. فلا ولن يُسأل للتعجيز صاحب هذه القدرة: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ﴾؟".[1]

وشجرية الكون هي التي جعلته "كلاً" لا يتجزأ تجزأ انقسام، وإنما تجزؤه تجزؤ تكامل. لأن الشجرة لا تكون إلا بجميع مكوناتها من جذور وجذع وأغصان وفروع وأزهار وثمار...إلخ. ومن هنا كان كل جزء من الكون دالا على ما سواه. من حيث كونه إن الجزء لا يقوم إلا بالكل. وإنما الكل هو جميع الجزئيات المنتظمة فيه. قال بديع الزمان: "اعلم أن كل جزء من كل الكون واحد قياسيّ لإمكانات سائر الأجزاء. وبالعكس، فأجزاء الكائنات مقاييس للإمكانات بينها كلٌّ لكلٍ".[2] وهذا إنما يدل على ما سماه بديع الزمان "بطابع الأحدية" و"ختم التوحيد" بمعنى أن الكون من حيث كليته دال على الخالق الواحد؛ إذ "الكلية" أساسا تقوم على الانتظام الكلي الجامع. فإذا كان كل شيء دالا على ما سواه ومحيلا عليه لوحدة الطابع في كل شيء؛ فإن كل شيء حينئذ دال على الواحد؛ ومن هنا كانت الكلية الكونية قائمة على أصل التوحيد. يقول بديع الزمان: "إن التجلي الأعظم للفردية قد طبع على وجه "الكون" كله طابعاً مميزاً للتوحيد، وختماً واضحاً للوحدانية وضوحاً حوّل الكون كلَّه بحكم "الكل" الذي لا يقبل التجزئة مطلقاً".[3]

---

(١) الكلمات، ص ١٢٤.

(٢) المثنوي العربي النوري، ص ١٧٦.

(٣) اللمعات، ص ٥٣٩.

وأما كون كلية الكون لا تقبل الانقسام فبمعنى أنه لا يقبل المصدرية المتعددة. إذ حقيقة الانقسام عند بديع الزمان هي بمعنى تدخل الأيدي المتعددة في الخلق، فيرجع كل مخلوق إلى خالقه المفترض، فيكون لكل خلق طابع خاص مختلف ومناقض للآخر بدلالته على خالق آخر. وهذا انقسام في الكون. إلا أنه عُلم أن الخالق واحد من وحدة المخلوقات المنتظمة في ناموس كلي واحد. إذ تبين أن "الأحدية" في تجلياتها الكونية دليل قاطع على "الواحدية"،[1] وفي ذلك دليل قاطع أيضا على "الكلية الكونية" المنتظمة من مجموع الخليقة. يقول النورسي: "ثم إن هذا الكون في ضوء هذا السر -سر الأحدية- ليس كلاً يستعصي على التجزئة وحدها بل أيضاً هو كلّي من حيث الماهية، لا يقبل الانقسام والاشتراك والتجزئة، وتدخل الأيدي المتعددة قط، فإن كل جزء فيه بحكم جزئي وفرد منه، وكل الكون هو بحكم الكلي، فليس فيه موضع للاشتراك في أية جهة كانت".[2]

بـ٢- الكون هو كتاب الله المنظور:

لا شك أن الكتاب المسطور على الورق أو القرطاس -أي كتاب- دال على "قصد الخطاب"، الحاصل في اللغة بين المتخاطبين؛ بهدف التواصل، فهو إرسالية لغوية، تتضمن مرسِلا، ومرسَلا إليه مقصودا بالخطاب. ولا كلام إلا وهو يتضمن هذه الأركان إلا أن يكون لغوا. وأقوال العقلاء -كأعمالهم- منزهة عن العبث. فإذا كان كذلك؛ فإن الكون بكل عناصره المادية والمعنوية كتاب منظور؛ لأنه يتضمن كل خصائص الكتاب المقروء، من قصدية خطابية، وإرسالية معنوية. إننا "إذا تأملنا في أرجاء الكون نرى أن هناك نظاماً كاملاً وتناسقاً بديعاً مقصوداً في جميع أجزائه.

(١) انظر مصطلح "التوحيد" في "مشتقاته": "الأحدية والواحدية" من هذا الكتاب .

(٢) اللمعات، ص ٥٥١.

فنشاهد رشحات الإرادة والاختيار، ولمعات القصد في كل جهة؛ حتى نبصر نور "القصد" في كل شيء، وضياء "الإرادة" في كل شأن، ولمعان "الاختيار" في كل حركة، وشعلة "الحكمة" في كل تركيب".[1]

إن مفهوم "الكون" باعتباره مجموعة من الرموز الوجودية، هو خطاب من الله إلى هذا الإنسان، خاطبه به ليبلغه وحدانيته، وجمال ذاته، وجلال صفاته سبحانه؛ بقصد هدايته إليه، وتبيان سبيل الوصول إليه ﷻ. فكل شيء إذن بهذا الوجود هو أحرف كونية، وكلمات ربانية، وجمل صمدانية، صادرة من لدن حكيم خبير؛ بقصد سابق معلوم. يقول النورسي: "إن التجلي الأعظم لاسم "الحَكَم" جعل هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات، وخُطَّتْ في كل كلمة منه مئات الأسطر، وتُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات، وحُفِظَ في كل نقطة من نقاطه فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة -بمئات الأوجه- على مصوِّره وكاتبه، حتى إن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدَها كافية للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا إلى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافاً مضاعفة".[2]

إن البعد "القصدي" للكائنات جميعا، وما لها من وظائف وجودية، كل ذلك ونحوه جعل النورسي يعتبر الكون مجموعة من الرموز الدلالية التي تحمل خطابا، ومن هنا كان كتابا؛ ذلك أن الحرف ما هو في نهاية المطاف إلا رمزا يحمل دلالة لغوية ما. فساوى الكون الكتاب من هذا الوجه. حتى

(١) الكلمات، ص ٦١٣.

(٢) اللمعات، ص ٥٢٨.

شبهه بديع الزمان بـ"قرآن مجسم" من حيث إن القرآن المقروء خطاب الله للعباد، المنزل على عبده؛ هداية لهم وإرشادا، فشابهه الكون من هذه الجهة، أي من حيث إنه هو أيضا خطاب الله الرمزي لذوي الألباب؛ هداية لهم وإرشادا. يقول رحمه الله: "إن ماهية الكون وقيمته ومزاياه تتحقق بالنور الذي أتى به محمد ﷺ وبه تُعلم وظائف ما فيه من موجودات ونتائجها ومهماتها وقيمتها، وبه يكون الكون بأسره عبارة عن مكاتيب إلهية بليغة، وقرآن ربانى مجسّم، ومعرض آثار سبحانية مهيب".[1] ومن هنا ارتبطت أحكام القرآن بالكون كله من حيث إن الخطاب في العمق واحد؛ لأن المخاطب واحد. "فاعلم من هذا (...) مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته".[2]

إن قرآنية الكون التي جعلها بديع الزمان صفة ثابتة له؛ تعنى فيما تعني أنه رحمه الله انبهر بـ"البعد القصدي" للكون، إذ أدرك بتفكره العميق ما لهذه الكائنات من دلالات ربانية وما لرموزها من معان خطابية، فرفض أن يكون هذا النظام الكوني الدقيق، والمتشابك؛ مجرد صدفة عمياء؛ مما جعله يوقن من هذه القرآنية الكونية. قال رحمه الله: "إن كل آية كونية من آيات قرآن الكون العظيم المنظور تُعرِض للأنظار معجزاتٍ نيّرات هي بعدد نقاطها وحروفها، فلا جرم أن المصادفة العشواء والقوة العمياء، والطبيعة الصماء البلهاء التي لا هدف لها ولا ميزان، لا يمكنها أن تتدخل -في أية جهة كانت- في هذا الميزان المتقن الخاص، وفي هذا الانتظام

(١) الشعاعات، ص ٦٦٦.

(٢) اللمعات، ص ٥٢٦.

الدقيق البديع المتّسمين بالحكمة والبصيرة. فلو أُفترض تدخلها -جدلاً- لظهر أثر التدخل، بينما لا يشاهَد في أي مكان تفاوتاً ولا خللاً قط".[1] ومن هنا كان الكون كالقرآن، يعرض جمال الله ﷻ في صحائف الوجود المشاهدة. هذا الجمال الذي ليس إلا انعكاسا لجمال أسمائه الحسنى، مما سوف نبين بعد بحول الله، حيث يتعرف الإنسان على مولاه من خلال خطابه الكوني المنظور، كما يتعرف عليه تعالى من خلال خطابه القرآني المقروء. فكل شيء يسبح بحمد خالقه، ويقول ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: انظر ها نحن أولاء نعكس جمال الخالق ﷻ؛ دلالة عليه، فارفع بصرك إلى هناك حيث ترى جمال الحق يمد الوجود بالبهاء. ذلك منطوق كلام بديع الزمان في وصف جمالية الكون من حيث هو كتاب قدسي منظور. قال رحمه الله: "فبناء على هذا الدستور العام فإن البارئ المصور سبحانه الذي أبدع كتاب الكون العظيم هذا يعرّف جمالَ كمالِه ويحبّبه بألسنةِ مخلوقاته -ابتداءً من أصغر جزئي إلى أكبر كلي- فيعرّف سبحانه ذاتَه المقدسَّة، ويفهّم كمالَه السامي، ويُظهر جمالَه البديع: بهذا الكون الرائع، وبكل صحيفة فيه، وبكل سطر فيه، وبكل كلمة فيه، بل حتى بكل حرف وبكل نقطة من كتابه العظيم هذا".[2]

ولو أردت أن تلج إلى باطن هذا الكتاب الكوني؛ لوجدت أنه سجل شامل لتفاصيل الكائنات وسائر مقاديرها الممكنة، ذلك "أن الحاكم الحكيم والعليم الرحيم الذي كتب هذا الكون بشكل كتاب، حتى سجل تاريخ حياة كل شجرة في كل بذر من بذورها، ودوّن وظائف حياة كل عشب ومهام كل زهر في جميع نواها. وكتب جميع حوادث الحياة لكل

(١) اللمعات، ص ٥٣٠.

(٢) اللمعات، ص ٥٣٠.

ذي شعور في قواه الحافظة الصغيرة كحبة الخردل. واحتفظ بكل عمل في ملكه كافة وبكل حادثة في دوائر سلطنته بالتقاط صورها المتعددة، والذي خلق الجنة والنار والصراط والميزان الأكبر لأجل تجليات وتحقق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية".[1]

بـ٣- الكون منعكس عن الأسماء الحسنى:

ومن الخواص التعريفية للكون -عند بديع الزمان- أنه "منعكس عن الأسماء الحسنى"، بمعنى أنه مفعول للربوبية العليا، المتصفة بصفات الكمال، والمتسمة بأسماء الجمال؛ مما يؤول مرة أخرى بهذه الكثرة المتناثرة في الوجود إلى الوحدة، وذلك من خلال الرجوع إلى رب واحد عبر أسمائه الحسنى، المشعة على الكون؛ إيجادا ورعاية ورحمة. فما من شيء إلا وهو مرتبط في وجوده باسم من أسماء الله الحسنى، ذلك أن الرب العظيم ﷻ متصرف في الكون خلقا وإيجادا؛ من حيث هو خالق، مصور، بديع، محي، مميت، رازق، مهيمن، رحمن، رحيم ...إلخ. فأي شيء إذن يمكن تصوره خارج هذه الدوائر الربانية؟ من هنا كان الوجود الحقيقي للأشياء إنما هو بالأسماء، لا بذوات تلك الأشياء. وذلك قول النورسي: "الحقائق الحقيقية للأشياء، إنما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق".[2]

وهذا المعنى عند بديع الزمان يرجع إلى ما يمكن تسميته "بالنظرية المرآتية"، أو التصور المرآتي للكون، حيث اعتبر وجود الكائنات كلها كوجود المرآة، القابلة لعكس النور المسلط عليها، ذلك أن "الكون مرآة،

---

(١) الشعاعات، ص ٢٩٩.

(٢) الكلمات، ص ٧٤٩.

وماهية كل موجود مرآة أيضا. هذه المرايا معرضة إلى الإيجاد الإلهي بالقدرة الأزلية".[1] وإنما غاية المرآة أن تعكس النور، وإنما النور نور الله الكريم ذي الجلال والجمال، الذي يعطي الكائنات حياتها، إذ يمتد بهاء أسمائه الحسنى إلى كل شيء من خلقه ﷻ، فتشير صور الجمال في الخلق إلى الجمال المطلق للخالق ﷻ، المنزّه عن التشخيص والتجسيم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾(الشورى:١١). يقول بديع الزمان: "إن هذا الكون مرآة تعكس الجمال السرمدي والحسن غير المحدود، بل من تجلياته سبحانه. وما في الكون من جمال وحسن آت من ذلك الحسن السرمدي، ويتجمل بالانتساب إليه فيرقى ويعلو.. إذ لولا ذلك الانتساب لتحول الكون إلى مأتم موحش، وأخلاط، ودمار، وفوضى ضارب أطنابها".[2]

إن الناظر المتفكر في الكون، عبر كل امتداداته وأبعاده؛ لن يرى -إذا كان ينظر بنور التفكر- إلا أنوارا منعكسة عن الأسماء الحسنى. وكيف لا يرى ذلك وهذه أسرار الخلق والإبداع تبهر كل متأمل سالك إلى الله. فانظر تر كل شيء يدلك على اسم من أسماء مولاك الحسنى وصفاته العلا. انظر إلى أي صخرة، أو أي قطره، أو زهرة.. "فان لم تستطع أن تقرأ في زهرة واحدة الأسماء الحسنى وتعجز عن رؤيتها بوضوح، فانظر إلى الجنة وتأمل في الربيع وشاهد سطح الأرض، عند ذلك يمكنك أن تقرأ بوضوح الأسماء المكتوبة على الجنة وعلى الربيع وعلى سطح الأرض، التي هي أزاهير كبيرة جداً لرحمة الله الواسعة".[3]

---

(١) اللمعات، ص ٥٥.

(٢) الشعاعات، ص ٦٨١.

(٣) الكلمات، ص ٧٥٤.

إن بديع الزمان بنى كل تصوراته التفكرية، ونظرياته التفسيرية على شجرة الأسماء الحسنى. فالكون كله عنده ليس إلا انعكاسا جماليا لأسماء الله الحسنى، من حيث إن صفاته تعالى المنيرة من أسمائه، تقتضي أن يكون لها أثر في الوجود، وهذا الأثر هو الكون نفسه. بمعنى أن صفة الخالقية، تقتضي أن يكون له مخلوق، وصفة المالكية تقتضي أن يكون له مملوك، وصفة الرازقية تقتضي أن يكون له مرزوق، وهكذا صفة الرحمة، والعدل، والمغفرة ...إلخ. حتى كان كل شيء في الكون إن هو إلا أثر من آثار رحمة الله وأسمائه الحسنى جل وعلا. ومن هنا كان رجوع الكون في سائر تجلياته الوجودية إلى تلك الأسماء انعكاسا لجمالها وجلالها. كما تعكس المرآة -ولله المثل الأعلى- نور الشمس. قال بديع الزمان في سياق الرد على ابن عربي: "إن النقوش التي توجد في مرايا الموجودات بقدرة الله وإرادته إنما هي من آثاره ﷻ. فكل موجود إنما هو منه تعالى وهو الذي يوجده، وليس كل موجود هو، حتى يقال: لا موجود إلا هو. إذ للأشياء وجود، وهو وجود ثابت إلى حد ما، وان كان هذا الوجود وجودا ضعيفاً كأنه وهمي وخيالي بالنسبة إلى وجوده تعالى، إلا انه موجود بإيجاد القدير الأزلي وإرادته وقدرته.

إن للشمس المشهودة في المرآة وجوداً مثالياً عدا وجودها الخارجي الحقيقي. ولها وجود خارجي عرضي آخر يلون المرآة بزينته إذ تنبسط عليها صورتها. ولها وجود خارجي عرضي أيضاً، وهو وجود ثابت إلى حد ما وهو الصورة المنتقشة على الورقة الحساسة خلف المرآة. فكما أن للشمس وجودات هكذا في المثال كذلك الأمر في مرآة الكون ومرايا ماهية الأشياء. فان نقوش المصنوعات الظاهرة بتجليات الأسماء الإلهية

الحسنى الحاصلة بالإرادة الإلهية واختيارها وقدرتها، لها وجود حادث غير وجود الواجب الوجود".[1]

وهذا المنطق هو الذي ساعد بديع الزمان على تثبيت عقيدة التوحيد الصافية، بمنهج عرفاني، دون أن يحيد عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وما ذلك إلا بسبب ارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم. مصدرا للبحث، ومجالا للتدبر، ومنهجا للعرفان. وقد رأيت كيف حكم بارتباط أحكام القرآن بالكون؛ حتى جعل الكون قرآنا منظورا. ومن هنا فرق بوضوح بين الخالق والمخلوق، ولم يلتبس عليه ما التبس على أهل العرفان في شطحاتهم من القول بوحدة الوجود. فخرجوا بذلك عن مقتضى الصراط المستقيم. كما سهل عليه تبين ما أشكل على بعضهم: كيف تقود الكثرة إلى الوحدة، وتؤدي إليها؟ أي كيف يصدر الكثير عن الواحد؟ وهو خلاصة عقيدة التوحيد التي كرس النورسي حياته لتثبيتها والدفاع عنها. وعدم إحكام ذلك إما يؤدي بصاحبه إلى القول بوحدة الوجود، أو إلى القول بتعدد الآلهة وكلاهما كفر صريح. فكانت نظرية صاحبنا مسلكا أمينا إذ سلك بتفكره الوجداني، وتدبره العقلاني مسلك القرآن، مستفيدا من أنوار الأسماء الحسنى، التي كانت الموجودات كلها بعض آثارها. وما تلك الأسماء بدورها إلا صفات ثابتة لله الواحد الأحد الفرد الصمد ﷻ عن خلقه علوا كبيرا. ذلك ما نجده في كلمة جامعة للنورسي قال رحمه الله: "إن حاكمية ألوف الأفعال العمومية الجارية في الكون ومئات الأسماء الإلهية المشهودة تجلياتها وكبرياؤها وكمالها وإحاطتها وإطلاقها ولاتناهيها، كل منها، برهان قوي للوحدانية والتوحيد".[2]

(١) اللمعات، ص ٥٥-٥٦.

(٢) الشعاعات، ص ٢٤.

وبيان ذلك هو كما يلي: "ما أن تنفذ الحياةُ في شيء [حتى] تصيّره عالَماً بحدّ ذاته؛ إذ تمنحه من الجامعية ما يجعله كلاً إن كان جزءاً، وما يجعله كلياً إن كان جزئياً؛ فالحياة لها من الجامعية بحيث تعرض في نفسها أغلب الأسماء الحسنى المتجلية على الكائنات كلها، وكأنها مرآة جامعة تعكس تجليات الأحدية. فحالما تدخل الحياة في جسم تعمل على تحويله إلى عالم مصغّر، لكأنها تحيله بمثابة بذرة حاملة لفهرس شجرة الكائنات، وكما لا يمكن أن تكون البذرة إلاّ أثر قدرة خالق شجرتها كذلك الذي خلق أصغر كائن حي لابد أنه هو خالق الكون كله".[1]

وبذلك تظهر مقاصد الربوبية في الكون كله، حيث تعلن الذرات كلها انتسابها لله المالك الواحد؛ "لأن مقاصد الربوبية في الكون تتجمع في الأحوال الجزئية، وغاياتها تتمركز فيها، وتجليات أكثر الأسماء الحسنى وظهورها وتعيناتها تجتمع فيها، ونتائج خلق الموجودات وفوائدها تبرز فيها؛ لذا فان كلاً منها تقول انطلاقاً من نقطة التمركز والتجمع هذه: أنا ملك مَن خلق الكون بأسره، أنا فعله وأثره".[2]

فدل ذلك كله على وحدانية الخالق ﷻ. لأن الربوبية تقتضي الملك والقيومية معا، أي الخلق والرعاية. فكانت سائر الأسماء الحسنى تتصرف بين هذا وذاك، أي بين الخلق والإبداع من جهة، وبين الرعاية والهيمنة على كل شيء من جهة ثانية؛ رزقا وحفظا وإعاشة وإماتة...إلخ من سائر معاني الأسماء الخاصة بقيومية الله الواحد الأحد على الكون. فلا شيء إلا وهو يشهد أنه واحد. ذلك أنه لا شيء إلا وهو مستفيد كليا من بعض أسمائه الحسنى خلقا تدبيرا. وما الأسماء الحسنى -في نهاية المطاف-

(١) اللمعات، ص ٥٦٩.

(٢) الشعاعات، ص ٢٦.

إلا صفات الخالق الفرد الصمد. يقول بديع الزمان: "نعم إن إدارة الكون واحدة، وتدبير شؤونه واحد، وسلطنته واحدة، وعلامته واحدة.. وهكذا واحد، واحد، واحد، إلى ألف من الواحد.. وكذا الأسماء الإلهية وأفعالها التي تدير هذا الكون، كل منها واحدة، فضلاً عن أن كل اسم، وكل فعل؛ يحيط بالكون كله أو بمعظمه، أي إن الحكمة الفاعلة في الكون واحدة والعناية فيه واحدة، والتنظيم الذي فيه واحد، والإعاشة واحدة والرحمة المغيثة للمحتاجين فيه واحدة، والمطر النازل بشرى بين يدي رحمته تعالى واحد. وهكذا واحد، واحد، واحد.. إلى الألف من الواحد"[1] وما هو إلا واحد. تعددت الأسماء والفرد جل وعلا واحد.

ومن هنا كانت المهارات جميعها والتجليات، الظاهرة في الكون أو في الإنسان، الدالة على أي جمال أو كمال؛ إنما هي تجليات للأسماء الحسنى. حتى المظاهر التي تدل على حاجة ما، أو ضعف ما، فهي أيضا من هذا القبيل. أليس مظهر المرض مثلا يدل على الحاجة إلى الشافي؟ والفقر يدل على الحاجة إلى الغني، والجوع يدل على الحاجة إلى الرزاق، وهكذا لا شيء إلا وهو يعود إلى الأسماء المهيمنة على الكون كله، تفتح فيه مسالك للعباد يسلكون منها إلى رب العباد. قال بديع الزمان: "إن في كل شيء وجوهاً كثيرة جداً متوجهة -كالنوافذ- إلى الله ﷻ، بمضمون الآية الكريمة ﴿وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ إذ أن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شئ تستند إلى اسم من الأسماء أو إلى كثير من الأسماء. وإن الإتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم من الأسماء، حتى إن علم الحكمة

(١) الشعاعات، ص ٣٤.

الحقيقي يستند إلى اسم الله "الحكيم" وعلم الطب يستند إلى اسم الله "الشافي" وعلم الهندسة يستند إلى اسم الله "المقدّر".. وهكذا كل علم من العلوم يستند إلى اسم من الأسماء الحسنى وينتهي إليه، كما أن حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمّل من البشر، تستند كلها إلى الأسماء الإلهية الحسنى".[1]

وكما أن شجرة الأسماء الحسنى أثمرت لدى بديع الزمان توحيد الخالق ﷻ، في ذاته وصفاته، فهي أيضا قد أثمرت إثبات البعث واليوم الآخر. قال رحمه الله: "وكذا، فان تجلّيات جميع الأسماء الحسنى لخالق الكون المتجلّية في أرجاء العالم كله، تقتضي بالبداهة وجود عالم آخر خالد، وتدل دلالة واضحة على وجود الآخرة".[2] وبيان ذلك أن أسماء الله الحسنى وصفاته العلا هي الدالة على سائر تصرفات الله في الكون، بما تقتضيه ربوبيته تعالى خلقا وإبداعا ورعاية. وقد علمنا أن سائر التحولات والتغيرات الكونية في الأنفس والآفاق راجعة إلى تأثير الأسماء الراجعة إلى وجوه التصرفات الإلهية، وأنواع الشؤون الربانية، على حد تعبير النورسي، ذلك أن "تكامل الأسماء والعناوين يُفصح عن تكامل صفاتٍ لا تحصى لذلك الصانع من جهة صنعته وتكامل تلك الصفات وإبداع الصنعة يشهدان على تكامل قابليات ذلك الصانع واستعداداته الذاتية المسماة بالشؤون. وتكامل تلك الشؤون والقابليات الذاتية تدل على تكامل ماهية ذات الصانع".[3]

ومصطلح الشؤون مأخوذ من قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

(١) الكلمات، ص ٧٤٩.

(٢) الكلمات، ص ١٢٧.

(٣) الكلمات، ص ٣٤٣.

(الرحمن:٢٩) وتفسير هذه الآية لدى علماء التفسير دال على كل معاني التصرفات الربانية في الكون، بما يرجع إلى ربوبيته تعالى وقيوميته. فكل التغييرات الجارية بين الموت والحياة في كل شيء، راجع إلى شؤونه ﷻ. وإذا كانت مظاهر الإحياء والإماتة، صورا تترى ههنا في الدنيا من خلال عكس الأرض مثلا لأسماء الله في تجولاتها بين الربيع والخريف ثم الربيع مرة أخرى بعد فصل الشتاء الدال على الموت في عالم النبات؛ فإن الكون كله محكوم بأسماء الله: المحيي المميت، الحكم، العدل، الباسط القابض، الرحمن الرحيم...إلخ فرحمته تعالى المستغرقة لكل شيء تقتضي أن يكون سبحانه حكما عدلا. وإنما تمام ذلك أن يبعث الناس ليوم النشور حيث تمام الجزاء. ومن هنا كان المسلم يقرأ سبع عشرة مرة في اليوم على الأقل: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. إن أسماء الله الحسنى التي تعلق بها حدوث الكون هي السالكة به إلى وجوده الثاني في اليوم الآخر ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾(الأنبياء:١٠٤). يقول بديع الزمان: "نعم، إن الكون حادث، حيث نشاهد في كل عصر، وفي كل سنة بل في كل موسم عالَماً يرحل ويحطُّ آخرُ مكانه، تمضي كائنات، وتأتي أخرى. فالقدير ذو الجلال هو الذي يوجِد هذا العالم من العدم في كل سنة، بل في كل موسم، بل في كل يوم، ويعرضه أمام أرباب الشعور ثم يأخذه إلى الغيب، ويأتي مكانه بآخر، وهكذا ينشر الواحدَ تلو الآخر في تعاقب مستمر، معلقاً تلك العوالم بشكل متسلسل على شريط الزمان".[1] إن هذه الشؤون الربانية المتصرفة في الكون إنما هي آثار رحمة الله المتدفقة أنوارها من مشكاة السماء الحسنى، التي ألهمت بديع الزمان بإملاء رسالته العظيمة

(١) الكلمات، ص ٨٢٥.

في "الحشر" ضمن كليات رسائل النور، كما سبق بيانه، وذلك بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠).

بـ٤- الكون منجذب إلى خالقه بحركة المحبة:

ومن خواص مفهوم "الكون" لدى بديع الزمان النورسي أنه متحرك أبدا. بيد أن حركته تلك ليست عشوائية، ولا عمياء، بل هي حركة واعية، بل هي عميقة في الشعور والإحساس؛ لأنها حركة وجدانية. وأعمق الحركات وعيا لدى الكائنات مطلقا؛ ما كان صادرا عن رغبة وجدانية. وإنما الوجد خلاصة المحبة، وزبدتها. فالكون إذن محب، يجري في مدرات المحبة سالكا إلى محبوبه: الله رب العالمين، الذي خلقه ولم يكن شيئا مذكورا، والذي فطره على عبادته، وجبله على طاعته رغبا ورهبا.

فأما معنى حركة الكون فهو ظاهر في التحولات الزمانية والمكانية التي تطبع وجوده. فكل شيء فيه سائر إلى غايته؛ فيما قدره الله له من أفلاك ومدارات أو معارج ومسارات: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٣٨-٤٠). وأما قيام تلك الحركة على المحبة؛ فلأن الأصل في الإنسان أنه يعبد ربه محبة فيه. وما العبادة إلا خالص المحبة وروحها. وإذا كان الإنسان كذلك وهو من هو: ثمرة شجرة الكون وفهرسته الجامع كما تبين بمحله من هذا البحث؛[1] فإن سائر الكائنات تبع له في هذا. فهو الخليفة الذي تحمل أمانة العبادة الكلية الشاملة، والكائنات تبع له في

(١) انظر مصطلح "الإنسان" من هذا الكتاب.

ذلك. قال بديع الزمان: "العشق الإلهي العَذْب الذي يستحوذ على قلب الإنسان -وهو ثمرة شجرة الكون- يبين أن عشقاً خالصاً ومحبةً صادقة بأشكال شتّى، مغروزة في كيان الكون كله، وتتظاهر بأشكال شتّى. هذا الحب المالك قلب الكون يفصح عن محبوب خالد سرمدي"؛[1] ومن هنا كان الكل -مما في الكون- يلهج بذكر الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ﴾(الإسراء: ٤٤). وما قوانين الجاذبية -عند النورسي- التي في تربط الأجرام بمداراتها وأفلاكها، إلا مواجيد المحبة، تعلقت بجمال الأسماء الحسنى، فسارت أبدا تجرى إلى رضى المحبوب الذي له الأسماء الحسنى ﷻ. يقول: "في كل اسم من ألف اسم من الأسماء الإلهية الحسنى طبقات حُسن وجمال وفضل وكمال كثيرة جداً، كما أن فيها مراتب محبة وفخر وعزة وكبرياء كثيرة جداً. ومن هنا قال الأولياء المحققون الذين حظوا باسم الودود: إن جوهر الكون كله هو المحبة وان حركة الموجودات بالمحبة، فقوانين الانجذاب والجذب والجاذبية التي تجرى في الموجودات إنما هي آتية من المحبة".[2]

إن الانجذاب المذكور للكائنات، إنما هو لنور الأسماء الحسنى كما تبين في النص، وإنما انجذابها لها راجع إلى كون تلك الأسماء هي مصدر وجودها، فهي أنوار الجمال الصادر عن الله الواحد الأحد؛ فآل الأمر إلى التوحيد الخالص؛ ولذلك كانت جميع الكائنات تحب جميع الأسماء، "ومحبة جميع الأسماء أيضاً تتحول إلى محبة ذاته الجليلة سبحانه، إذ أن تلك الأسماء عناوين وتجليات ذاته جلّ وعلا".[3] فما

(١) الكلمات، ص ٨١٨.

(٢) الكلمات، ص ٧٤٦.

(٣) الكلمات، ص ٧٦٨.

من شيء إذن؛ إلا وهو انعكاس لجمالها؛ ومن هنا شوق الكائنات إلى مصدر النور، تماما كما تنجذب الفراشات إلى جمال المصابيح في ظلمة الليل البهيم. هناك حيث تحقق وجودها؛ بإدراك أصل الوجود ومعرفة كمال الأسماء والصفات العليا لله الواحد القهار، جل وعلا. فالمحبة الكامنة في قلب الكون، وفي مواجيد الكائنات، هي سبب وجودها، فإنما خلقت الكائنات لتظل منجذبة إلى جمال الله وجلاله. ألم يقل ﷻ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١٠)، ومن هنا قول النورسي على سبيل الاستنباط والتفسير: "إن هذا الكون هو بحكم مسجد كبير، وان جميع المخلوقات -ولا سيما السماوات والأرض- منهمكة في ذكر وتهليل وتسبيح ينبض بالحيوية. وقد تسنم الكل وظائفهم بكل شوق ونشوة وهم ينجزونها بكل سعادة وامتنان".[١] فما جوهر العبادة إلا المحبة. وتلك غاية كل مخلوق، ومقصد الخالق من خلقه. ومن هنا قال بديع الزمان: "إن المحبة سبب وجود هذه الكائنات، والرابطة لأجزائها، وإنها نور الأكوان، وحياتها".[٢] وما دام كل شيء في الكون يسبح بحمد ربه، عابدا لله الواحد الأحد، فإن "كل ذرات الوجود في نشوة المحبة".[٣]

فكل شيء مستجيب للأمر الإلهي استجابة رغبة ورهبة؛ لما استقر في وجدان الكون من متعة ذوقية كلما اقترب من مولاه. فالقرب يكسبه إحساسا بوجوده لما يستفيد من أنوار الأسماء. أما البعد فهو متلف له في متاهات الظلمات المؤدية إلى العدم. ولا طاقة لمن أدرك نعمة الوجود

(١) الكلمات، ص ٥٢٠.

(٢) الكلمات، ص ٤١٠.

(٣) الكلمات، ص ٧٤٦.

للعود إلى الفناء المطلق؛ من إذن هنا كانت المحبة للنور محبة للوجود وإحساسا بالحياة، ورغبة في الوصل الدائم مع مصدر النور، مصدر الحياة. فكيف لا تجد الكائنات المبصرة حقا لذتها في السير التعبدي إلى الله؟ يقول بديع الزمان: "اعلم أن الحق سبحانه بكمال كرمه ادمج قسماً من مكافأة الخدمة في نفس الخدمة، وأدرج أجرة العمل في نفس العمل. حتى إن الموجودات ولو الجمادات تمتثل أوامره التكوينية بكمال الشوق والتلذذ، وبالامتثال تصير معاكسَ تجليات أسماء نور الأنوار. كالحباب الحقير المظلم الذي يتوجه بقلبه الصافي إلى الشمس، فيتنور مبتسماً في وجهك، بجعل قلبه سرير الشمس. وكيف لا تلتذ الذراتُ ومركباتها -بفرض شعورٍ فيها- بمظهريتها لتجليات أسماء ذي الجلال والجمال والكمال المطلق مع ارتقائها بالامتثال، مثل الحباب من نهاية الخمود والظلمة إلى نهاية الظهور والنور!".[1]

بهذا إذن تتأكد حاجة الكائنات المستمرة لمنبع الحياة والوجود. إن الحاجة كلما تعمقت في الوجدان؛ أشعرت صاحبها بالشوق إلى الذات المالكة لتلك الحاجة. وإنما الشوق هو المولد للمحبة الجاذبة. وقد تبين أن حاجة الكون هي للوجود أولا، ولا مالك لذلك إلا الذي وهبه إياه، الذي قال له: "كن فيكون!" وبدون هذا الأمر التكويني العظيم لا يكون شيء شيئا! فأي رغبة إذن، وأي شوق، يملأ قلب العبد -أي عبد من ذوي الأرواح وما سواهم- ويعطيه سكينة وطمأنينة؛ أكثر من أن يحظى بأمر: "كن"؟ فآل "الأمر التكويني" وكل أمر رباني إلى أن صار مصدرا للمحبة وباعثا على الشوق. وما أجمل قول بديع الزمان في تمثيله اللطيف، إذ

(١) المثنوي العربي النوري، ص ٢٧٤.

قال: "إن قائد الجيش بأمره "تَقَدمْ" مثلما يحرّك الجندي الواحد فانه يحرّك الجيش بأكمله كذلك بالأمر نفسه. فحقيقة سر الطاعة هي أن لكل شيء في الكون -كما يشاهد بالتجربة- نقطة كمال، وله ميل إليها، فتضاعف الميل يولّد الحاجة، وتضاعف الحاجة يتحول إلى شوق، وتضاعف الشوق يكوّن الانجذاب، فالانجذاب والشوق والحاجة والميل.. كلّها نوىً لامتثال الأوامر التكوينية الرّبانية وبذورها من حيث ماهية الأشياء".[1]

بـ٥- الكون يفيض بالحياة:

إذا كان هذا الكون متحركا بمحبة، وعابدا بوجدان، وسائرا إلى الله بوعي؛ فلا يمكن إلا أن يكون "حيا"؛ لأن الميت ليس له شيء مما ذكر من خصائص. ورغم أن كثيرا من عناصر الكون هي مما نصنفه تحت اسم "الجماد" إلا أنه مع ذلك حي بجميع مظاهره، وكل تجلياته. وما كان كلام الله في كتابه الحكيم ليكون عبثا ولا هذرا. فقد سبق قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ﴾. ومن هنا جزم النورسي في كلمات جوامع بحياة كل شيء في الكون. ذلك أن "حقيقة الحياة (...) هي أصفى خلاصة مترشحة من الكائنات كلها كما أنها أعظم سِرّ يولّد الشكر والعبادة والحمد والمحبة التي هي أهم المقاصد الإلهية في الكون وأهم نتيجة لخلق العالم هذا".[2]

فكل المظاهر المادية في الكون تتضمن نبضا حيا، وشعورا واعيا بوجودها. فذاك هو الذي يشكل حقيقتها الوجودية، وأما تلك المظاهر المادية فليست إلا أشباحا تابعة لها في الوجود. قال رحمه الله: "الحياة

---

(١) المثنوي العربي النوري، ص ٢٧٤.

(٢) صيقل الإسلام، ص ٣٤٣.

أساس الوجود وأصله. والمادة تابعة لها وقائمة بها"،[1] إذ الوجود الحق إنما هو للحياة؛ ومن هنا كانت "الحياة كمال الوجود"،[2] فهي تتجلى فيه نورا مشعا يملأ حقيقته حيوية، ويخرجه من ظلمات العدم بأمر الله الحي القيوم. "فالكون إذن -بجميع عوالمه- حيٌّ ومشعٌ مضيء بذلك التجلي".[3]

وقد أثبت بديع الزمان؛ في غير ما موطن من رسائل النور؛ أن الكون إنسان كبير، كما أن الإنسان كون صغير، وفهرست جامع له.[4] ومن مقتضيات الفَهْرَسَةِ أن تحيل على الكتاب الكبير في كل شيء. ومما يجب أن يحيل عليه الوجود الفهرستي للإنسان معنى الحياة الكامنة فيه، والمتجلية على سائر كينونته بالفعل. فلا بد إذن أن يكون المحال عليه من تفاصيل الكتاب حيا كذلك؛ وإلا انعدم مفهوم الفهرستية في الإنسان. ولذلك قال النورسي: "كذلك الكون الذي هو إنسان أكبر يضم ألوف العوالم الشبيهة بالدوائر المتداخلة. فالأحوال الجارية في تلك العوالم والحوادث التي تقع فيها تكون موضع النظر من حيث جزئياتها وكلياتها، وخصوصياتها وعظمتها".[5] وإنما حقيقة الوجود الإنساني هي الحياة؛ ومن هنا أمكن أن نقول: "إن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة".[6]

---

(١) اللمعات، ص ٥٥٩.

(٢) الكلمات، ص ٨٧٦.

(٣) الكلمات، ص ٨٧٥.

(٤) انظر مصطلح "الإنسان" من هذا الكتاب.

(٥) اللمعات، ص ٤٥٢.

(٦) اللمعات، ص ٥٦٧.

فالروح -"مِنْ أَمْرِ رَبِّي"- هو إذن باعث الحياة في كل شيء، ولو خلا منه شيء لخلا من الحياة. هذه حقيقة مطلقة لدى بديع الزمان. قال: "لقد ثبت بالتجربة أن المادة ليست أساساً وأصلاً ليبقى الوجود مسخّراً من أجلها وتابعاً لها، بل هي قائمة بـ"معنى"، وهذا المعنى هو الحياة.. هو الروح".[1]

من هنا إذن كانت الحياة أهم حقيقة في الكون. وأعظم تجل للوجود الحق، وجود واجب الوجود ﷻ. فدل ذلك على عمق معنى الحياة وامتدادها المطلق في الغيب. فما من شيء إلا وهو يحيل على الوجود الحق، باعث الحياة وواهبها ﷻ، حتى ولو كانت نملة. أليست شيئا يفيض بالحياة؟ فإذن لا شك أن حقيقتها أعظم من أن تسعها عقولنا ولا حتى هذه الأرض؛ ذلك أنك "إذا وازنت النملة بميزان الوجود، فالكون الذي تنطوي عليه النملة بسر الحياة، لا تسعه كرتنا الأرضية".[2]

إلا أن بديع الزمان قد يذكر إلى جانب حقيقة الحياة في ماهية الكون حقائق أخرى مترابطة فيما بينها، إذ يؤدي بعضها إلى بعض، ويؤول أولها إلى آخرها، في حلقة واحدة: هي الكون. فهي بمجموعها تكون ماهيته، وهي: "الوجود، والنور، والرحمة، والحياة". فهذه العناصر المعنوية الأربعة هي التي تشكل طبيعة ماهيته. وذلك قوله رحمه الله: "إن أهم حقيقة في الكون وأثمن ماهية فيه هي الوجود، الحياة، النور، الرحمة. وان هذه الأربعة متوجهة مباشرة ودون وسائط وحجب إلى القدرة الإلهية ومشيئتها الخاصة، بينما تحجب الأسباب الظاهرة في المصنوعات الإلهية الأخرى تصرّف القدرة الإلهية، وتستر القوانين المطردة والقواعد الثابتة -إلى حدٍ

(١) الكلمات، ص ٦٠٠.

(٢) الكلمات، ص ٨٤٥.

ما- الإرادة الإلهية ومشيئتها، إلاّ أن تلك الحجب والأستار لم توضع أمام الحياة والنور والرحمة؛ لعدم جريان حكمة وجودها في تلك الأمور".[1]

فالمقصود بالوجود هنا: معناه المصدري، أي فعل الوجود. فهذه حقيقة بدهية تقوم أساسا على مقولة أن هذا الكون موجود حقيقة، لكن بمعناه الحرفي. وذلك رفضا منه لكل المقولات السفسطائية التي تشكك في كل شيء، حتى البدهيات نفسها. ثم إن معنى الوجود بعد ذلك بالنسبة لبديع الزمان يعتبر حقيقة كبرى، ونعمة عظمى حظي بها الكون. ألم يكن ممكنا أن يكون عدما؟ بلى؛ فمن رحمة الله إذن على الكون أن أوجده. ومن هنا كانت الرحمة طبيعة في الوجود كله سارية فيه بمقتضى أسماء الله الرحمن الرحيم. فلا شيء من مظاهره إلا وهو قائم على الرحمة لكافة عناصره.

وأما النور؛ فلا حياة إلا بنور. وإنما الظلام قرين العدم. ومن هنا كانت الحياة قائمة على النور، فهو شرط وجودها، ومصدره. ولذلك كان الله هو "النور" الحق. فقال ﷻ: ﴿اَللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(النور:٣٥).

إلا أن أجمع لفظ دال عنده على ماهية الوجود هو مصطلح "الحياة". فهو جامع لهذه العناصر جميعا أعني: الوجود، والنور، والرحمة. فإذا ورد عنده منفردا دل عليها جميعا. ولذلك جعلناه خاصية من خواص تعريف الكون، دون باقي العناصر الثلاثة. فإذا كان الكون حيا فهو بالضرورة موجود، ومستنير يشع بالحياة، ثم منطو على حكمة الرحمة الكلية. ومن هنا اكتفى بديع الزمان في كثير من رسائله بوصف الكون بالحياة للدلالة على كل مراده من ماهيته وطبيعته الوجودية. ومن أجمع كلامه في هذا قوله رحمه الله: "إن كمال الوجود مع الحياة، بل إن الوجود الحقيقي

(١) اللمعات، ص ١٦٧.

للوجود كائن مع الحياة، فالحياة نور الوجود، والشعور ضياء الحياة.. والحياة رأس كل شئ وأساسه. وهي التي تجعل كل شئ ملكاً لكل كائن حيّ، فتجعل الشيء الحيّ الواحد بحكم المالك لجميع الأشياء. فبالحياة يتمكن الشيء الحيّ أن يقول: "إن هذه الأشياء ملكي، والدنيا مسكني، والكائنات كلها ملك أعطانيه مالكي". وكما أن الضوء سبب لرؤية الأجسام وسبب لظهور الألوان -على قول- كذلك الحياة هي كشّافة للموجودات وسبب لظهورها، وسبب لتحقق النوعيات.. وهي التي تجعل جزء الجزئي بحكم الكلّ والكلّي، وسبب لحصر الأشياء الكلية في الجزء، وسبب لجميع كمالات الوجود كإشراكها وتوحيدها الأشياء الوفيرة، وجعلها مداراً لوحدة واحدة ومظهراً لروح واحدة.. حتى إن الحياة نوع من تجلّي الوحدة في طبقات الكثرة من المخلوقات، فهي مرآة للأحدية في الكثرة".[1]

وبغير هذا الفهم الحيوي للكون يكون الوجود كله طلسما مخيفا، يملأ عيشنا الفاني وحشة، وفزعا، وقلقا، وضلالا. ولله در بديع الزمان إذ يقول: "نعم، إن مثل هذا التجلي، تجلي الحياة الذي هو ضياء شمس الحياة الأزلية لن ينحصر في عالم الشهادة هذا فقط، ولا في هذا الزمان الحاضر، ولا في هذا الوجود الخارجي، بل لابد أن لكل عالم من العوالم مظهراً من مظاهر تجلي ذلك الضياء حسب قابليته. فالكونُ إذن بجميع عوالمه، حيّ ومشع مضيء بذلك التجلي، وإلاّ لأصبح كل من العوالم -كما تراه عين الضلالة- جنازة هائلة مخيفة تحت هذه الدنيا المؤقتة الظاهرة، وعالماً خرباً مظلماً".[2] فلا نور له إلا بالمسارعة إلى التعلق

(١) الكلمات، ص ٥٩٦.

(٢) الكلمات، ص ١٢٠.

بأسماء الله الحسنى، مصابيح كل حي، ومدده من الحياة. من حيث إن الأسماء هي قنوات تزويده بالحياة، ونقاط ربطه بمصدرها المشع. فهي إذن -كما تبين قبل- مدد وجوده. ولذلك كانت أنوارها الساطعة عليه مكامن الحياة فيه، وآثارها هي أسرار تجليات الروح عليه. وذلك قول بديع الزمان: "كما أن الجسد يستند إلى الروح ويقوم بها وتُبعث فيه الحياة بها، واللفظ يتنور على وفق المعنى، والصورة تستند إلى حقيقة وتتزود منها قيمتها. كذلك هذا العالم، عالم الشهادة المادي الجسماني إنما هو جسد، ولفظ، وصورة، يستند إلى الأسماء الإلهية المحتجبة وراء ستار عالم الغيب، فهو يحيى بتلك الأسماء التي تبعث فيه الحيوية، ويتوجه إليها، فيزداد جمالاً وبهاءً".[1]

وإذا كان ذلك كذلك؛ ولم يكن ممكنا لهذا الوجود أن يتحرك إلا بحياة، ممتدة من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فلا بد إذن للإنسان أن يعلم هذه الحقيقة؛ وإلا تاه عن إدراك هذا المغزى، وفاتته حقيقة الحياة، فلا يتمكن من ربط حياته هذه بالحياة الممتدة في الغيب، حياة الدار الآخرة التي هي الحياة حقا، للإنسان وللكون أجمع. فإذن كان لا بد من إنزال الرسل بأخبار الغيب، تمد الوعي البشري بنبأ الحياة، وتصله بالله والدار الآخرة، حيث تمتد الحياة إلى الأبد ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٦٤) أي هي الوجود الممتلئ حياة، فلا موت ولا فناء. والكون كله حينئذ سيكون حيا بحياة الإنسان، إذ يعاد الخلق الكوني من أجل الإنسان، حتى يقام له ما وعده ربه من خلود في الجنة أو الأخرى نعوذ بالله منها. فإنما الكون كالإنسان خلق ليحيى. قال

(١) الشعاعات، ص ٨٨.

بديع الزمان: "نعم، ما دام الكون قد خُلق لأجل الحياة، وأن الحياة هي أعظم تجل، وأكمل نقش، وأجمل صنعة للحي القيوم جلّ جلاله. وما دامت حياته السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب. إذ لو لم تكن هناك "رسل" ولا "كتب" لما عُرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أن تكلم الفرد يبين حيويته وحياته؛ كذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنزلة عليهم".[1]

وأخيرا فحياة الكون هي أساس التوحيد، ومسلكه الذي يجمع شتات الكثرة في الوحدة، أي يقود العقل المتفكر من بين طبقات الكائنات الكثيرة جدا، ليريه نقطة استنادها جميعها، حيث تلتقي كل روافدها بدون استثناء، التي تمدها بالحياة. ذلك أن مختلف طبقات الحياة المتجلية في سائر الكائنات من الإنسان والحيوان والنبات والجماد...إلخ، كل ذلك يقود إلى حقيقة واحدة، هي مصدر الحياة الواحدة، التي تملأ وجودهم جميعا، وتعطيه معناه، ووعيه بذاته وبما حوله. فالحياة إذن هي الدليل القاطع على وحدانية الحي القيوم، واهب الحياة ﷻ؛ ذلك "أن كمال الوجود مع الحياة، بل إن الوجود الحقيقي للوجود كائن مع الحياة، فالحياة نور الوجود، والشعور ضياء الحياة.. والحياة رأس كل شيء وأساسه (...) حتى إن الحياة نوع من تجلّي الوحدة في طبقات الكثرة من المخلوقات، فهي مرآة للأحدية في الكثرة".[2]

إن الجاذبية التي تكمن في كل ذرة من ذرات الكون لهي رابطة عامة شاملة تربط الوجود الكوني كله بحقيقة واحدة: هي أن الكثرة الظاهرة فيه تؤول إلى الوحدة من حيث إن كل شيء فيه يستجيب لأمر واحد

(١) الكلمات، ص ١١٨.

(٢) الكلمات، ص ٥٩٦.

يربط بين جميع الأشياء مهما تعدد شكلها. وما تلك الجاذبية السارية في الكون إلا أثرا من آثار الحياة فيه. فكانت لطيفة الحياة الخفية أي سلطان الروح الكامن فيها هو الذي يسوق كل عناصر الكون إلى التوحيد. يقول بديع الزمان: "إن مبدأ الكثرة هو الوحدة، وإن منتهاها أيضا إلى الوحدة. فهذا دستور فطري. فلقد خَلَقت القدرة الإلهية، من القوة التي أودعتها في الكائنات -وهي فيض تجليها وأثر إبداعها- قوةً جاذبة عامة، متصلة مستقلة محصلة بإحسانها على كل ذرة من ذرات الوجود جاذبة خاصة بها. فأوجدت رابطة الكون. فكما أن في الذرات محصلة القوى الجاذبة الناشئة من القوة المودعة فيها، فهي ضياء القوة، واستحالة لطيفة من إذابتها، كذلك فان محصل قطرات الحياة المنتشرة على الكائنات كافة ولمعانها، إنما هي حياة عامة تعم الوجود جميعاً.. نعم هكذا يقتضي الأمر. فأينما وجدت الحياة فثمّ الروح. والروح مثل الحياة أيضا منتهاها بداية تجلي فيض لروح"،[1] بمعنى أن مآل الروح وغاية امتداده إنما هو المصدر، والمرجع الكلى الذي يرجع إليه كل شيء. فكان الروح الذي هو أصل الحياة يصب بقوة جاذبة في مسلك الدلالة على الواحد الأحد.

ثانيا: علاقاته:

أ- مرادفاته:

- الوجود:

أهم مرادف لمصطلح الكون بأبعاده الاصطلاحية الشاملة هو مصطلح "الوجود". يقول بديع الزمان: "إن هذه الكلمة الطيبة "بسم الله" كنز عظيم لا يفنى أبداً، إذ بها يرتبط "فقرك" برحمة واسعة مطلقة أوسع من الكائنات،

(١) صيقل الإسلام، ص ٣٣٦.

ويتعلق "عجزك" بقدرة عظيمة مطلقة تمسك زمام الوجود من الذرات إلى المجرات".[1] ويقول: "إن الإنسان هو نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يُشعِرَهُ الحقُّ ﷻ جميع أسمائه الحسنى المتجلية بما أودع في نفس الإنسان من مزايا جامعة".[2] فلفظ الوجود هنا هو بمعنى الكون سواء. إلا أن استعماله لدى بديع الزمان غالبا ما يأتي من حيث هو صفة للكون، أي من حيث هو كائن، بمعنى الكينونة المفارقة للعدم.

فإذا أراد الحديث عن الكون بصفته الوجودية سماه "وجودا". وذلك نحو قوله رحمه الله: "ليست الروح البشرية وحدها لم تخلق للفناء، بل حتى أبسط المخلوقات كذلك لم تخلق للفناء بل لها نوع من البقاء، فالزهرة البسيطة -مثلاً- التي لا تملك روحاً مثلنا، هي أيضاً عندما ترحل بآلاف من الأوجه ظاهراً من الوجود تبقى صورتها محفوظة في كثير من الأذهان، كما يدوم قانون تراكيبها في مئات من بُذيراتها المتناهية في الصغر، فتمثل بذلك نموذجاً لنوع من البقاء".[3] "إن الوجود خير محض، والعدم شر محض، والدليل هو رجوع جميع المحاسن والكمالات والفضائل إلى الوجود، وكون العدم أساس جميع المعاصي والمصائب والنقائص".[4]

ب- أضداده:

- العدم:

يرد العدم عند النورسي مضادا للكون من حيث هو "وجود". وإنما سمي

---

(١) الكلمات، ص ٧.

(٢) الكلمات، ص ٨٢٨.

(٣) الكلمات، ص ٦١٠.

(٤) الكلمات، ص ٥٥٣.

الكون "كونا"؛ لأنه "كائن"، فالعدم نقيضه، ومضاده. والنصوص الواردة قَبْلُ في بيان مرادفة "الوجود" دالة على مناقضة "العدم". فلا داعي لإعادتها.

وإنما نبين ههنا طبيعة هذه "المناقضة"؛ ببيان حقيقة "العدم" ومفهومه، كما شاهده الأستاذ النورسي، في مقابلته لحقيقة الكون والوجود. فله عنده خصوصُ نظر، وتفرد إبصار! وذلك أنه -رحمه الله- أوغل بنا في النظر لهذا المفهوم إلى آخر حدود مدركات العقل البشري! فكانت له بذلك مشاهدات ذات عمق سحيق، تضرب في أبعاد النظر العقلي وأغوار الإبصار الذوقي الوجداني، بما يصعب على الفكر أن يتابعه بدقة متناهية! لقد وقف بنا النورسي بنظره هذا على شاطئ بحر العلم الإلهي المطلق! فقال لنا: انظروا هناك! فمن ذا قدير على التحديق في النور الخارق؟ وجرِّبْ إن شئتَ؛ ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٤) حيث لا قدرة لمخلوق على الخوض، وإلا فيكون من الهالكين!

إن "العدم" الذي نسميه نحن عادة بهذا الاصطلاح؛ إنما هو نقيض مفهومي بسيط لمعنى الوجود. أو قُلْ: هو غيابٌ للوجود، وليس نقيضا حقيقيا له! ذلك أن العدم المحض هو من المستحيلات على التصور والإدراك! نعم، ولو على المستوى الذهني المجرد! فكيف إذن يكون له مفهوم ومعنى؟ والعدم بما يتحدث عنه الفكر البشري هو: معنى من المعاني! هذا خُلْفٌ إذن!

ولهذا فإن النورسي ميَّزَ بين معنيين للعدم: أحدهما هو ما اصطلح عليه بـ"العدم الخارجي"، والآخر سماه: "العدم المطلق" أو "الفناء المطلق". فهذا إنما هو اسم على غير مسمى! إذْ لا حقيقة لوجوده الذهني أو التصوري! وأما "العدم الخارجي" فهو فناء باعتبار خروجه من عالم "الوجود بالفعل"،

إلى عالم "الوجود بالقوة"، أو بتعبير النورسي من دائرة تجليات "القدرة الإلهية" في عالم الشهود؛ إلى دائرة مكنونات "العلم الإلهي" في بحار الغيوب! فهو إذن؛ له حقيقة وجودية معنوية، كما سترى بحول الله موضحا بأمثلته البيانية.

قال رحمه الله في سياق الجواب عن سؤال كلامي: "أتشمل هذه الآية الكريمة: ﴿كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨) الآخرةَ والجنةَ وجهنَّمَ وأهليها، أم لا؟"

"الجواب: لقد صارت هذه المسألة موضع بحث كثير جداً من العلماء المحققين، وأصحاب الكشف والأولياء الصالحين. فالقول قولهم في هذه المسألة، فضلاً عن أن لهذه الآية الكريمة سعةً عظيمة جداً، مع تضمنها لمراتب كثيرة جداً. فقد قال القسم الأعظم من المحققين: لا تشمل هذه الآية عالم البقاء. في حين قال آخرون: إن تلك العوالم تتعرض أيضاً لنوع من الهلاك في زمن قصير جداً بحيث يعدّ آناً، وهو زمان قصير إلى درجةٍ لا يُشْعَرُ بذهابها إلى الفناء والعودة منه!

أما ما يحكم به بعض أصحاب الكشف المفرِّطين في أفكارهم من حدوث الفناء المطلق، فليس حقيقة ولا صواباً! لأن ذات الله ﷻ دائمي وسرمدي، فلابد أن صفاته وأسماءه أيضاً دائمية وسرمدية. ولما كانت صفاته وأسماؤه دائمية؛ فلابد أن أهل البقاء والباقيات الموجودة في عالم البقاء -التي هي مراياها، وجلواتها، ونقوشها، ومظاهرها- لا تذهب بالضرورة إلى الفناء المطلق قطعاً!

وحالياً وردت نقطتان من فيض القرآن الحكيم إلى البال نكتبها إجمالاً:

أولاها: إن قدرة الله -جل وعلا- لا حدود لها، حتى إن الوجود والعدم

بالنسبة إلى قدرته وإرادته تعالى كمَنْزِلَيْنِ، يرسل إليهما الأشياء ويجلبها منهما، بكل يسر وسهولة! فإن شاء يجلبها في يوم واحد، أو في آن واحد!

ثم إن العدم المطلق لا وجود له أصلاً؛ لوجود العلم المحيط، علماً أنه لا شيء خارج دائرة العلم الإلهي، كي يُلقى إليه شيء. والعدم الموجود ضمن دائرة العلم هو عدم خارجي، وعنوانٌ صار ستاراً على الوجود العِلْمي، حتى حدا ببعض العلماء المحققين إلى التعبير عن هذه الموجودات العلمية بأنها "أعيان ثابتة". لذا فالذهاب إلى الفناء، إنما هو نزع الأشياء لألبستها الخارجية مؤقتاً، ودخولها في وجود معنوي وعِلْمِي، أي إن الهالكات والفانيات تترك الوجود الخارجي وتلبس ماهياتها وجوداً معنوياً، وتخرج من دائرة القدرة؛ داخلة في دائرة العلم!".[1]

والمقصود بـ"دائرة القدرة" ههنا: تجليات القدرة الإلهية في عالم الأفعال، وليس المعنى أن هنالك شيئا يخرج عن دائرة قدرة الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا! وإنما المقصود أن الشيء إذْ تنقطع عنه إرادة الإيجاد الإلهية؛ يفنى فورا! إذْ وجوده الحقيقي إنما هو بالله! فيخرج من "دائرة القدرة" إلى "دائرة العلم"، بمعنى أنه حينما يفنى بذاته فإنه يبقى بعلم الله تبارك وتعالى! وهذا معنى لطيف جدا! فيه من مشاهدة جمال التوحيد وجلاله حقائقُ إيمانية في غاية السمو والصفاء!

وبيان ذلك إنما ورد في سياق آخر عنده بصورة أوضح، قال رحمه الله: "إن الأشياء لا تمضي إلى العدم، ولا تصير إلى الفناء، بل تمضي من دائرة القدرة إلى دائرة العلم، وتدخل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وتتوجه من عالم التغير والفناء إلى عالم النور والبقاء! وإن الجمال

(١) المكتوبات، ص ٧٤-٧٥.

والكمال في الأشياء يعودان إلى الأسماء الإلهية، وإلى نقوشها وجلواتها من زاوية نظر الحقيقة".[1]

ومثل له قبل ذلك بمثال عجيب، قال: "وهكذا فإن موسم الربيع المزدان بالمصنوعات الجميلة، على سطح الأرض، الشبيه بمزهرة عظيمة، إنما هو زهرة ناضرة تزول في الظاهر، وتذهب إلى العدم. بيد أنه -أي الربيع- يترك الحقائق الغيبية التي أفادها بعدد بذوره، ويترك الهويات المثالية التي نشرها بعدد الأزاهير، ويدع الحِكَمَ الربانية التي أظهرها بعدد الموجودات!"[2] فهو إذن زوال وفناء مادي فحسب، لكنه بقاء معنوي سرمدي!

وللمسألة عنده رحمه الله بيانٌ آخر، أورده بمنطق مصطلحه الخاص في معاني الوجود والعدم النسبيين، وهو الوجود "بالمعنى الاسمي" والوجود "بالمعنى الحرفي"، وهو القسم الثاني من التقسيم السابق في النص الأول، قال:

"النقطة الثانية: لقد أوضحنا في كثير من "الكلمات": أن كل شيء فانٍ بمعناه الاسمي، وبالوجه الناظر إلى ذاته، إذْ ليس له وجود مستقل ثابت بذاته، وليست له حقيقة قائمة بذاتها وحدها. ولكن الشيء في الوجه الناظر إلى الله سبحانه -أي إذا صار بالمعنى الحرفي- فليس فانياً؛ لأن فيه جلواتٍ ظاهرةً لأسماء باقية، فلا يكون معدوماً؛ لأنه يحمل ظلاً لوجود سرمدي، وله حقيقة ثابتة، وهي حقيقة سامية؛ لأنها نالت نوعاً من ظل ثابتٍ لاسم باقٍ![3]

---

(١) المكتوبات، ص ٣٧١.

(٢) المكتوبات، ص ٣٨٠.

(٣) ينظر شرح هذين المفهومين عند النورسي: "الوجود بالمعنى الاسمي" و"الوجود بالمعنى الحرفي" ضمن دراسة مصطلح: "التوحيد" بالفصل الأول من هذا البحث.

ثم إن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ هو سيفٌ ليقطع يد الإنسان عمّا سوى الله تعالى! حيث إن الآية تقطع العلائق مع الأشياء الفانية، في دنيا فانية، في غير سبيل الله. فحكم الآية الكريمة أنها تنظر إلى الفانيات في الدنيا، بمعنى أن الشيء إن كان في سبيل الله، أي إن كان بالمعنى الحرفي، أي إن كان لوجه الله؛ فلا يدخل ضمن ما سواه تعالى! أي لا يُضْرَبُ عنقُه بسيف الآية الكريمة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾.

حاصل الكلام: إذا كان الأمر لله، ووُجِدَ لله، فلا غير إذن حتى يُقطع رأسه! ولكن إن لم يوجد الله، ولم ينظر في سبيل الله فكل شيء غيرٌ. فعليه أن يسلّ سيف: "كلّ شيءٍ هالكٌ الاّ وَجْهَه"! ويمزّق الحجاب؛ حتى يجده سبحانه تعالى!"[1] يعني: حتى يجده تعالى وحده دون سواه! فلا يتعلق بأوهام الظلال دون حقائقها؛ فيكون من الخاسرين! إذْ لا حقيقة لشيء فيما سواه؛ إلا به تعالى! وأي شيء في الوجود يقوم بغيره جل وعلا، وهو الحي القيوم على كل شيء؟ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(الزمر:٦٢).

وهذا لعمري معنى لطيف جدا، من أدق المعاني وألطفها، في بيان حقيقة مفهوم "العدم" ومعنى "الفناء"، بالنسبة إلى علم الله جل وعلا، وقدرته سبحانه. وإنما هو مشاهدة من مشاهدات "الإعجاز المعنوي" للقرآن العظيم، وقَفَتْ بنا خاشعين بين يدي الله، على شاطئ بحر العلم الإلهي، ومطلق القدرة الرحمانية العظيمة! وما كان لها أن تكون لبديع الزمان؛ لولا أنها قبسٌ إلهامي من نور القرآن.. فإلى مثلها تشد الرحال!

ثالثا: ضمائمه:

---

(١) المكتوبات: ٧٥.

الآيات الكونية:

الآيات الكونية: هي الدلائل الوجودية من كل الكائنات، من حيث كل منها حرف ذو مغزى -بالمعنى الحرفي- منصوب للدلالة على الصانع الجليل.

قال بديع الزمان: "نعم، إن ذلك الفرقان الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطَّرها قلمُ القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور. وهو الذي ينظر إلى الموجودات -التي كل منها حرف ذو مغزى- بالمعنى الحرفي، أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمالَ الحقيقي للكائنات".[1]

- ثمرة الكون: هي الإنسان. قال بديع الزمان: "العقل والقلب هما بحكم نواة الإنسان ولبّه وبفضلهما استطاع أن يصبح ثمرة الكون، ويملكان من القدرة على الانبساط والاتساع ما يمكنهما أن يطويا العالم كله رغم صغرهما!"[2] وذلك أن الإنسان كما درسناه عند النورسي "هو ثمرة شجرة الخلق، والفهرست الكوني الجامع، العاكس الأكمل للأسماء الحسنى، الساعي لتحقيق رغبة البقاء الكامنة في فطرته، المشاهد عبودية الكائنات باستخلافه في الأرض؛ عبادةً كليةً لله الواحد الأحد".[3]

وبهذا المعنى كان الإنسان ثمرة الكون. وقال أيضا: "إن الإنسان هو حقاً أكرم ثمرة لشجرة الكون".[4]

---

(١) الكلمات، ص ١٤٣.

(٢) الشعاعات، ص ١٦٠.

(٣) انظر تفصيله في مصطلح "الإنسان" بهذا البحث.

(٤) الكلمات، ص ٦٤٠.

الحقائق الكونية: هي ما كشفه القرآن من الأسرار الطبيعية المودعة في الكون.

قال بديع الزمان في سياق حديثه عن صدق نبوة محمد بن عبد الله ﷺ، منبها إلى: "إخباره الغيب عن الحقائق الإلهية والحقائق الكونية والأمور الأخروية"[1] وقال عن الناس في السياق نفسه: "لم يصلوا إلى أصغر تلك الحقائق وأبسطها بعقولهم. ثم إن عقول البشر ستقول بلا شك أمام تلك الحقائق الإلهية والحقائق الكونية التي أظهرها القرآن الكريم: صدقتَ، وستقبل تلك الحقائق بعد استماعها إلى بيان القرآن بصفاء القلب وتزكية النفس، وبعد رقي الروح واكتمال العقل، وستباركه".[2]

الحوادث الكونية:

الحوادث الكونية: هي وقائع خلق الكون وتدميره، من يوم بدء الخلق إلى يوم الهدم إلى يوم الإعادة. وذلك نحو قوله تعالى في البدء: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:٩-١١) وقوله جل وعلا في الإعادة: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤).

كل ذلك ونحوه يسميه بديع الزمان: "حوادث كونية". وصدقها دال على صدق النبي ﷺ. قال رحمه الله في سياق بيان أدلة صدق القرآن ونبوة

(١) الكلمات، ص ٤٧٠.

(٢) الكلمات، ص ٤٧١.

محمد ﷺ: "بيانه -بهذا القرآن- بياناً غيبياً لما مضى من الحوادث الكونية الواقعة ولما سيأتي منها مع أميّته (...) يؤكد أن القرآن سماوي، وكله صدق وعدل وكلام مبارك للرب الرحيم".[1]

السنن الكونية:

السنن الكونية: هي الإرادة الإلهية التكوينية، المتعلقة بقوانين الطبيعة وأسرارها التسخيرية. أي العادات الجارية التي تربط بين الأسباب والمسببات.

قال بديع الزمان: "إن انشقاق القمر ليس حادثة حدثت من تلقاء نفسها، بناء على أسباب طبيعية وعن طريق المصادفة! بل أوقعها الخالق الحكيم -رب الشمس والقمر- حدثاً خارقاً للسنن الكونية، تصديقاً لرسالة رسوله الحبيب ﷺ، وإعلاناً عن صدق دعوته".[2] وقال في سياق الشرح والبيان:

ولأن الأمر كذلك، أي بما أن السنن الكونية هي أسرار التسخير الكوني، وقوانين الطبيعة الجارية؛ فإن بديع الزمان أولاها اهتماما خاصا؛ إذ عليها قيام النهضة المادية. وحيازة قصب السبق الحضاري في المجال الدنيوي. وهو أمر مهم جدا في حياة المسلمين، من حيث قانون التدافع الحضاري مع الأمم الأخرى من جهة، ومن حيث إن الدنيا مزرعة للآخرة من جهة أخرى. ولذلك قال رحمه الله: "وغالباً ما يرى (...) مطيع الشريعة والعاصي لها جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. (...) ومطيع السنن الكونية والعاصي لها غالباً ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا".[3] ومن هنا كان نداؤه للأمة الإسلامية عاليا؛ من أجل التنبيه والانتباه إلى هذا الأمر الخطير، قال رحمه الله في خطبته الشامية الشهيرة: "يا أولياء الأمور! إن

(١) الكلمات، ص ٥٢١.

(٢) الكلمات، ص ٧٠٤.

(٣) الكلمات، ص ٨٧٢.

أردتم التوفيق فاطلبوه في موافقة أعمالكم للسنن الإلهية في الكون -أي قوانين الله- وإلاّ فلن تحصدوا إلاّ الخذلان والإخفاق!"[1]

وفسر ذلك في موطن آخر في درس عجيب، قال: "إن الصانع ذا الجلال وهو القادر على كل شئ، هو نفسه خالق الأسباب، وخالق المسبّبات، وهو الذي يربط المسبّبات بالأسباب بحكمته سبحانه، وقد عين بإرادته طبيعة الأشياء، وجعلها مرآة عاكسة لتجليات الشريعة الفطرية الكبرى التي فطر عليها الكون، والتي هي قوانين الله وسننه الجارية التي تخص تنظيم شؤون الكون، وقد أوجد بقدرته وجه "الطبيعة" التي يقوم عليها عالم الشهادة الخارجي الوجود، ثم خلق الأشياء وأنشأها على تلك الطبيعة ومازج بينهما بتمام الحكمة".[2] إن القوانين سنن الله الجارية في الكون والتي هي عناوين لنواميس الإرادة الإلهية، قد أطلق البشر على إحدى تلك القوانين اسم "الكهرباء"".[3] ذلك "أن الطبيعة هي شريعة إلهية كبرى أوقعت نظاماً دقيقاً بين أفعال وعناصر وأعضاء جسد الخليقة المسمى بعالم الشهادة. هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بـ"سنة الله" و"الطبيعة" وهي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون".[4] تلك إذن هي: "الشريعة الآتية من صفة الإرادة التي تسمى بالأوامر التكوينية، والشريعة الفطرية، وهي محصلة قوانين عادات الله الجارية في الكون".[5] تلك السنن التي لا تحابي أحدا، من أخذ بها أخذ بأسباب النجاح والفلاح، ومن أعرض عنها كان في الدنيا من المتخلفين، وجرى يلهث خلف ركب الأمم.

---

(١) صيقل الإسلام، ص ٥٣١.

(٢) اللمعات، ص ٢٨٦.

(٣) الملاحق/ملحق أميرداغ-٢، ص ٤١٣.

(٤) المثنوي العربي النوري، ص ٤٢٥.

(٥) المثنوي العربي النوري، ص ٤٢٦.

شجرة الكون:

شجرة الكون: هي مجموع النظام الكوني. وإنما سماه بديع الزمان شجرة من حيث إن بعضه ينبني على بعض، ويخرج بعضه من بعض، كانبناء الفرع على الأصل. فكان الإنسان خلاصة النتاج الأخير، والثمرة الجامعة كما بيناه قبل. قال رحمه الله: "إن الإنسان هو حقاً أكرم ثمرة لشجرة الكون".[1] وقال أيضا الإنسان: "خاتمة ثمرات شجرة الكون وأجمع ما فيها من الصفات".[2]

الشريعة الكونية:

الشريعة الكونية: هي مجموع السنن الكونية ونظامها الكلي. قال رحمه الله: "إن ترك المستعد لما هو أهل للقيام به، وتشبثه بما ليس أهلاً له، عصيان كبير وخرق فاضح لطاعة الشريعة الكونية "شريعة الخلقة". إذ من شأن هذه الشريعة: انتشار استعداد الإنسان ونفوذ قابليته في الصنعة، واحترام مقاييس الصنعة ومحبتها، وامتثال نواميسها والتمثل بها".[3]

طلسم الكون:

الطلسم: هو اللغز الغامض. وطلسم الكون: هو لغز الكون بمعناه الوجودي. إنه سؤال: "ما معنى وجود الكون؟" أي إنه الأسئلة الفلسفية الخالدة المشهورة: "من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟" بمعناها الإشكالي، حينما تطرح حول الكون والإنسان والحياة والمصير! والقرآن وحده يملك حل ذلك اللغز وكشف طلسمه.

---

(١) الكلمات، ص ٦٤٠.

(٢) الشعاعات، ص ٢٧٢.

(٣) صيقل الإسلام، ص ٦٦.

يقول بديع الزمان: "إن الذي يحل طلسم الكون ويكشف معمّى الخلق إنما هو أنت وحدك أيها القرآن الحكيم!".[1] ويقول أيضا: "إن الإيمان بالله وباليوم الآخر، أثمن مفتاحين يحلاّن لروح البشر طلسم الكون ولغزه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء".[2] ويقول في سياق آخر أبين: "إن تمزيق ستار العاديّات -التي هي مصدر الجهل المركب- ببيانات نافذة، واستخراج خوارق العادات المتسترة تحت ذلك الستار وإظهارها بجلاء، وتحطيم طاغوت الطبيعة -التي هي منبع الضلالة- بسيوف البراهين الألماسية، وتشتيت حجب نوم الغفلة الكثيفة بصيحات مدوية كالرعد، وحل طلسم الكون المغلق والمعمّى العجيب للعالم الذي أعجز الفلسفة البشرية والحكمة الإنسانية؛ ما هو إلاّ من صنع هذا القرآن المعجز البيان، البصير بالحقيقة ، المطّلع على الغيب، المانح للهداية، المظهر للحق".[3]

فهرس الكون:

فهرس الكون: هو الإنسان، وذلك من حيث هو "ثمرة الكون" كما سبق بيانه. وقد ورد في دراستنا لمصطلح الإنسان عند بديع الزمان أن معنى كونه "فهرستا" أو "فهرسا" هو راجع إلى ثمريته الوجودية؛ إذ "من اللازم لما سبق، من كون الإنسان "ثمرة لشجرة الخلق" أن يكون أيضا "فهرستا" لهذا الكون الفسيح. إذ الثمرة هي مجمع كل الخصائص الوراثية الجينية للشجرة بأكملها. تحتوي في نواتها على كل العناصر المكونة لمادة الشجرة، بدءا بالوريقات الأولى حتى الجذوع والأغصان ثم الأزهار

(١) الكلمات، ص ٥٠٦.

(٢) الكلمات، ص ٢٦.

(٣) الكلمات، ص ٤٦٦.

والثمار! كل ذلك مضمن بصورة مركزة جدا في نواة الثمرة، التي إن غرستها كانت منها بعد ذلك شجرة أخرى. فبهذا المثال الاستعاري يقدم لنا بديع الزمان صورة الإنسان كمخلوق مركزي في هذا الكون الفسيح.[1]

يقول بديع الزمان عن الحياة مبينا أن "القدرة الإلهية؛ بجعلها الكائن الحي بمثابة كونٍ مصغر، فكأنها -أي الحياة- وسيلةٌ لانطواء الكائنات في ذلك الكائن الحي الصغير؛ بما تُظهر فيه ما يشبه فهرس الكون العظيم، كما تجعله في رباط وثيق مع معظم الموجودات".[2] ويقول: "ألا ترى معجزات القدرة في وجهي؟ وخوارق الصنعة في فطرتي؟ فان استطعت أن تشاهدها، فستدرك أن خالقي لا يخفى عليه شئ، ولا يصعب عليه أمر (...) وهو الذي ادرج فهرس الكون العظيم في ماهيتي بانتظام دقيق".[3] ومن هنا تصريحه الواضح في اللمعات، يقول: "كما أن الإنسان عالَم صغير، كذلك العالم إنسان كبير. فهذا الإنسان يمثل خلاصة الإنسان الكبير، وفهرسه. فالنماذج المصغرة في الإنسان لا بد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة".[4]

قلب الكون:

قلب الكون: في اصطلاح بديع الزمان النورسي هو الأرض! وذلك من حيث كونها موطن الإنسان، باعتباره ثمرة شجرة الكون كما تم بيانه. فمن هنا كانت الأرض قلب الكون. يقول: "إن الأرض التي هي بمثابة قلب الكون، قد أصبحت مَشْهَرَاً لعجائب مصنوعات الله البديعة، ومحشراً

(١) انظر تعريف مصطلح "الإنسان" بهذا البحث.

(٢) اللمعات، ص ٥٥٨.

(٣) الكلمات، ص ٧١٣.

(٤) اللمعات، ص ١٢٧.

لغرائب مخلوقاته الجميلة، وممراً لقافلة موجوداته الوفيرة، ومسجداً لعباده المتراصين صفوفاً عليها، ومقراً لأداء عباداتهم.. هذه الأرض تظهر من شعاع التوحيد ما يملأ الكون نوراً وضياءً".[1] وقال أيضا: إن"هذه الأرض قد أصبحت ذات أهمية عظمى من حيث احتواؤها على كثرة المخلوقات، ومئات الألوف من أنواع ذوي الحياة والأرواح المختلفة المتبدلة، حتى صارت قلب الكون وخلاصته، ومركزه وزبدته ونتيجته وسبب خلقه. فذُكرت دائماً صنواً للسماوات كما في ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في جميع الأوامر السماوية"،[2] وبين تفسير ذلك وعلته فيما أورده من كلامه المفصل بـ"الكلمات" على سبيل البيان والتعليل، قال: "ومن هنا فان مهد هذا الإنسان ومسكنه وهو الأرض كفء للسماء معنىً وصنعةً. ومع صغر الأرض وحقارتها بالنسبة إلى السماء فهي قلب الكون ومركزه.. ومشهر جميع معجزات الصنعة الربانية.. ومظهر جميع تجليات الأسماء الحسنى وبؤرتها.. ومعكس الفعاليات الربانية المطلقة ومحشرها وسوق عرض المخلوقات الإلهية بجود مطلق، ولاسيما عرضها لكثرة كاثرة من النباتات والحيوانات.. وهي نموذج مصغر لما يعرض في عوالم الآخرة من مصنوعات.. و مصنع يعمل بسرعة فائقة لإنتاج المنسوجات الأبدية والمناظر السرمدية المتبدلة بسرعة.. وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة".[3]

كتاب الكون:

كتاب الكون: هو مجموع الكائنات من سائر الخلائق، من حيث هي

(١) الكلمات، ص ٨١٢.

(٢) الكلمات، ص ١١١.

(٣) الكلمات، ص ٢٠٤.

آيات وجودية ناطقة بتوحيد الله، ودالة عليه تعالى. كما هو شأن آيات القرآن تماما. ولذلك سماه "قرآن الكون" أيضا.

يقول رحمه الله: "أما ما يسمونه بعلم الحكمة وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات، وظلّت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة. فبينما كان عليها أن تنظر إلى كتاب الكون نظرتها إلى الحروف -الدالة على كاتبها- فقد نظرت إليها بالمعنى الاسمي، أي إن الموجودات قائمة بذاتها، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هذا! بدلاً من: ما أجمل خلق هذا!".[1] وقال في مثل هذا السياق: "إن فلسفة البشر وحكمته تنظر إلى الدنيا على أنها: ثابتة دائمة، فتذكر ماهية الموجودات وخواصها ذكراً مفصلاً مسهباً، بينما لو ذكرتْ وظائف تلك الموجودات الدالة على صانعها فإنها تذكرها ذكراً مجملاً مقتضباً. أي إنها تفصّل في ذكر نقوش كتاب الكون وحروفه، في حين لا تعير معناه ومغزاه اهتماماً كبيراً".[2] ومن هنا سماه قرآنا أيضا كما أشرنا قبل، من حيث إن وظيفته كوظيفة القرآن المكتوب، التي هي: الدلالة على الله والهداية إليه، قال رحمه الله: "إن الشخصية المعنوية للرسول الكريم ﷺ، شمس معنوية ساطعة للكائنات. وسراج منير لامع لها، كما أنها الآية العظمى من قرآن الكون".[3]

خلاصة

القرآن تفسير الكون والحياة.

إن الذي استفاده بديع الزمان النورسي من تفكراته الكونية؛ أنه استطاع

---

(١) الكلمات، ص ١٤٣.

(٢) الكلمات، ص ٥٠٨.

(٣) اللمعات، ص ٥٥٦.

أن يجمع بين القراءتين في نسق عجيب: قراءة القرآن المتلو، وقراءة القرآن المنظور؛ فكان أن نسج بينهما منافذ للفهم والتفسير قدمها للناس في شكل ما سماه بـ"كليات رسائل النور". إن اعتباره القرآن الكريم أعظم تفسير للكون جعله يدرك العلاقة الرابطة بين كلام الله جل وعلا وبين ملكوته. ولذلك قال رحمه الله: "إن القرآن الكريم "المقروء" هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم "منظور""،[1] الأمر الذي جعله يدخل باب العبادة في الحياة؛ وكأن هذا الكون مسجد كبير، مهيأ أصالة لعبادة الله رب العالمين. فهو إذن في مسجده حيثما حل وارتحل! ومن هنا قوله رحمه الله: "إن القرآن الكريم يتلو آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير هذا، فلننصت إليه! ولنتنوّر بنوره، ولنعمل بهديه الحكيم؛ حتى يكون لساننا رطباً بذكره وتلاوته!"[2] بذلك أساسا ربط بديع الزمان النورسي بين القرآنين، وبذلك كان لرسائله ذوقها، وكان لدعوته أثرها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الكلمات، ص ١٤٣.

(٢) الكلمات، ص ٣٠.